﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ٩٠﴾ [الصافات: 83 - 90]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ الأبِ الثّاني للبشَريّةِ إلى أبي الأنبيّاءِ

لمّا بَيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ قصّةَ نوحٍ ﷺ على سَبيلِ الإجمالِ لتقريرِ غَرَضِ الاعتبارِ، ناسَبَ الانتقالُ إلى ذِكْرِ خَبَرِ إبراهيمَ ﷺ مع قومِه، فمِن حُسْنِ الإرْدافِ موالاةُ قِصَّتِه بخَبَرِ إبراهيمَ ﷺ، لأنّ إبراهيمَ كآدَمَ، فهو الثّالثُ بالنّسبةِ إلى الأنبياءِ والمُرسَلين بعدَه؛ كما كان نوحٌ الأبَ الثّانيَ للبشريّة، وهو آدمُ الثّاني، ويَزيدُ حُسْنَ الإرْدافِ والتَّشابُهِ أنَّ نوحًا نَجّاهُ اللّهُ تَعالى مِن الغَرَقِ، وإبراهيمَ نجّاه الله تعالى من الحَرْق[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِيعَتِهِۦ﴾: (شيع) أصلٌ يدلُّ على مُعاضدة ومُساعفة، ومنه قولهم: شَيَّع فلانٌ فلانًا عند شخوصِه[2]، والمشايعةُ المتابعةُ على أمر مُعيَّن، ومِن معانيه الظُّهور والتَّفرُّق[3]، والشِّيَعُ: الفِرَقُ الَّتي يتابِع بعضُها بعضًا[4]، وليس شرطًا أن يكون تجمُّعهم على خير أو صواب، والشِّيعة: من يتقوّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، والشِّيعَة: أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها: شِيَعٌ وأشْياع[5]،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شيع).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شيع).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شيع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (شيع)، والزّجاج، معاني القرآن: 03/ 174، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 205.

فالمراد بـ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ في الآية: ﴿*وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾، أي: إبراهيم على ملة نوح عليه السلام[1].

2) ﴿سَلِيمٍ﴾: أصلُ (سلم) يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[2]، فالسِّلْمُ والسَّلَامَةُ: التَّعرِّي من الآفات الظَّاهرة والباطنة، وقوله تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾، أي: مُتعرٍّ من الدَّغل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظَّاهر، وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سَلَامَةً، وسَلَامًا، وسَلَّمَهُ اللهُ[3]، والمُرادُ بالسَّلِيم في الآية: الموصوفُ بقوَّةِ السَّلامةِ، أي: الخُلوصُ من عقائدِ الشِّركِ[4].

3) ﴿أَيِفۡكًا﴾: أصلُ (أفك) يدلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ وَصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ، وَالإِفْكُ: الكَذِبُ[5]، وأَفَكْتُه عن الأمر: صرفته عنه بالكذبِ والباطل[6]، والإفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أَنْ يكونَ عليه[7]، كالصّرفِ عن الحقّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومِن الصدقِ في المقالِ إلى الكذب، ومِن الجميلِ في الفعل إلى القبيح[8]، والمقصودُ بـ﴿أَيِفۡكًا﴾ هنا: أكذبًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ؟[9].

4) ﴿ظَنُّكُم﴾: الظَّنُّ: "اسمٌ لِما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدَّت إلى العلْم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التَّوهُّم"[10]، فهو يأتي بمعنى اليقين وبمعنى الشكّ كذلك[11]، ومعناه المحوريُّ: "توقُّعُ وجودِ شيء مهمٍّ في باطنٍ لأمارةٍ قويَّةٍ على ذلك"[12]، ومنه قولُه تعالى حاكيًا قولَ الملأ من قوم نوح: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾. أي: نتيقَّنُكم كاذبين[13]، وجاءت ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ هنا بمعنى: ما تقولون[14]؟.

---

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 150.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(6) الخليل، العين: (أفك).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(8) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(9) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(10) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظنن).
(13) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 369.
(14) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 235.

5) ﴿سَقِيمٌ﴾: الجذر (سقم)، ومنه السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض المختصُّ بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي النَّفس[1]، ويدلّ الجذر (سقم) في أصله على "جفاف جِرْم الشيء على غير المعتاد لوجود غليظ أو حادّ في باطنه ... ومنه جفاف بَدَنِ السَّقيم؛ فطولُ المَرَض يكون من عِلَّة شديدة مُعْضِلَةٍ ... تَسْكُنُ الجسمَ وتجفّفُهُ، أي: تُذهب شَحْمَه ولَحْمه"[2]، و﴿سَقِيمٌ﴾ هنا يعني: وجيع[3]، أو هو سُقْمٌ معنوي تَقَزُّزًا ممّا فيه قومه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأخيارُ تَتَنادى أخبارُهم كما تتلاءمُ طبائِعُهم

شَرَعتِ الآياتُ الكريمةُ بِذِكرِ أوَّلِ أشياعِ نوحٍ ﷺ الَّذينَ هُم على مِنهاجِه ومِلَّته وهو نبيُّ اللّهِ إبراهيمُ، حينَ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سالمٍ مِن كلِّ اعتقادٍ باطلٍ وخُلُقٍ ذميم، حينَ قالَ لأبيهِ وقومِه مُنكِرًا عليهِم: (ما الَّذي تعبدونه من دونِ اللّه؟ أتُريدونَ آلهةً مُختلِقَة تعبدونها، وتتركونَ عبادةَ اللّهِ المُستحِقِّ للعبادة وحدَه؟ فما ظنُّكم بربِّ العالَمينَ أنّه فاعِلٌ بكم إذا أشركتُم بهِ وعبدتُّم معَه غيرَه؟)[5]. فبعدَ إنكارِه عليهم ذلك نظَرَ في النُّجوم راميًا ببصرِه إلى السّماءِ، مُتفكِّرًا في نفسِه كيفَ يَحتالُ، أو أراهُم أنّه يَنظُرُ في النُّجوم، لاعتقادِهِم عِلمَ النّجوم، فأوهمَهُم أنّهُ استدلّ بأمارةٍ على أنهُ يُسْقَمُ[6]. وإنّما فعلَ إبراهيمُ ﷺ ذلك مع قومِه، ليُقيمَ في البلَدِ إذا ذَهَبوا إلى عيدِهم، فإنّه كان قد أزِفَ خُروجُهُم إلى عيدٍ لهم، فأحَبَّ أن يختليَ بآلهتهم ليُكسِّرَها، فقالَ لهم كلامًا هو حقٌّ في الأمرِ نفسِه، فَهِموا مِنه أنَّه سقيمٌ على مُقتضَى ما يَعتقِدونَه، فتركوُه وراءَ ظُهورِهم وولَّوا عنه مُعرِضين[7].

(1) الراغب، المفردات، ص: 415.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سقم).
(3) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سقم).
(5) نخبةٌ من العلماء، التَّفسير الميسَّر.
(6) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 128.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 24.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوعُ الواوِ في ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ودَلالتُها:

جملةُ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ مَعطوفةٌ على ما قبلَها من قصّةِ نوح، وهي من عطفِ القصّة على القِصّة. أو استئنافيّةٌ جرَتْ على أسلوبٍ حُسن التَّخلّص، بالانتقالِ من قصَّةِ نوحٍ إلى قصَّةِ إبراهيمَ، باستلالِ إبراهيمَ منه في النَّظْم عن طريقِ الإخبارِ بأنّ الخليلَ ﷺ كان من شيعَةِ نوحٍ ﷺ، فاسْتَلّه منه بربطِ الضّميرِ نَظْمًا، كما اسْتَلّه منه برابطِ الأنْسابِ نسَلًا[1].

الرّابطُ بين نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ التّجرُّدُ للهِ وحدَهُ

تعيينُ مَرجعِ الضَّمير:

الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ الظّاهرُ أنَّه يعودُ على نوحٍ ﷺ؛ أيْ: (إبراهيمُ من شيعةِ نوحٍ وأتباعِه في أصلِ الدّين)، وقيلَ: يعودُ على نبيّنا محمّد ﷺ، بجَعْلِ المُتقدِّم شيعةً للمُتأخِّرِ - على خِلافِ الأصلِ - تعظيمًا لمَقامِ سيِّدِ المُرسَلين، وفي ذلك نَظَرٌ؛ لِكون عَوْدِ الضّميرِ على مذكورٍ قريبٍ أوْلَى مِن عَودِه على غيرِ مذكورٍ، ولكونِه جَرْيًا على خلافِ الأصلِ[2].

إبراهيمُ من شيعَةِ نوحٍ في التَّوحيدِ ودَعْوةِ العَبيدِ

عِلَّةُ التَّصديرِ بالتّوكيدِ:

صُدِّرت جملةُ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بحرفِ التّوكيدِ (إنّ)؛ لتحقيقِ مضمونِ الجملةِ، بتأكيدِ الثّناءِ على نوحٍ ﷺ وابتداءِ الثّناءِ على إبراهيمَ، تأسيسًا لمَنقبةٍ إضافيّةٍ لنوحٍ ﷺ، وهي أنْ كان إبراهيمُ - الرَّسولُ العظيمُ - من شيعتِه، وهو في ذاتِه استهلالٌ بمَناقبِ إبراهيمَ ﷺ بأنّه مُنَسَّبٌ إلى نوحٍ ﷺ مُشايِعٌ له في الاعْتِقادِ والدّيانةِ، فجَعَلَ إبراهيمَ مَنْقَبةً لنوحٍ، وجَعلَ نوحًا مَنْقَبةً لإبراهيمَ، كما يفخَرُ الوَلَدُ بوالدِه، ويفخَرُ الوالدُ بولدِه، وأدخَلَ ذلكَ كلَّه في حيِّزِ توكيدٍ واحدٍ على أحسنِ وجْهٍ وأبدعِ أسلوبٍ[3].

إدماجُ ثَناءَيْنِ في حَيِّزٍ واحدٍ من النَّظْمِ

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 146، وابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 23/ 136.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 109.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 136.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

احتمالُ التَّبعيضِ والبيانِ باعتبارَيْن مُختلِفَيْنِ

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: (إبراهيمُ بعضُ شيعةِ نوحٍ ﷺ)، ويصِحُّ أن تكون ﴿مِن﴾ بيانيّةً على إرادةِ التَّعظيم والمُبالَغة في كَونِ إبراهيمَ ﷺ أُمَّةً وحدَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]؛ أيْ: (مُستوفيًا لخصائصِ الأُمَّةِ الكاملةِ)؛ فكانت شيعتُه بكلِّ الأشياعِ الَّذين اتّبعوا سبيلَ نوحٍ، فبَيّنَ الشّيعةَ بإبراهيمَ، كأنّه قيلَ: (إبراهيمُ هو شيعةُ نوحٍ)، فلمّا أضافَ اللَّفظَ المُفرَدَ إلى الضّمير في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ أفاد الاستغراقَ، كأنّ كلّ مُشايَعةٍ لنوحٍ لا تصِحّ ولا تصلُحُ إلّا من بابِ إبراهيمَ ﷺ، وعلى كونِها بيانيّةً يكون البيانُ مُتقدِّمًا على المُبيَّن؛ لغرضِ الاهتمامِ بمَبدَأِ التشيُّعِ وأساسه[1]، والمعنيان مُحتمَلان، فالتّبعيضُ ظاهرٌ في كونِ إبراهيمَ ﷺ بعضَ شيعةِ نوحٍ ﷺ، والبيانُ باعتبارِه أقربَ الأنبياءِ إليه، فقد شايَعَه ومَن بعدَه على نهجِه؛ فيكونُ كلُّ نبيٍّ مُشايِعًا ومُناصِرًا لغيرِه، فَهُم كالدّائرةِ المُغلَقَةِ لا يُعرَفُ طَرَفاها.

بلاغةُ التّوكيدِ ودلالتُهُ البيانيّةُ:

مُشايَعةُ إبراهيمَ لنوحٍ ﷺ مَنقَبةٌ مُتبادَلةٌ للسّابِقِ واللّاحِقِ

اجتمعَ في جملة ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ثلاثةُ مؤكِّدات، اثنانِ لفظيّان وهما (إنَّ) وحرف اللّام، والثّالث في أسلوب النّظم تقديمًا وتأخيرًا، ولم يقل: (وإنّ مِن شيعتِه إبراهيمَ)، اهتمامًا بإبراهيم ﷺ واحتفاءً به وإلفاتًا إلى أنّه ليس كآحادِ الأشْياع لنوحٍ، بل في شيعتِه لنوحٍ ثَناءٌ على نوحٍ، فإذا كان التّابعُ لنوحٍ هو إبراهيمَ بجلالِه ومَقامِه، فكيف بنوحٍ نفسِه في الجلال والشّأن! واللّام لامُ التّوكيد المُزحلَقة[2]، لحِقت اسمَ إنّ المؤخَّر؛ وتزحلقَتْ عن الصّدارة لتأخُّر مَدخولِها، ولِصدارةِ التّوكيد بأداةِ (إنّ)، فلا يتزاحم مؤكِّدان في الصّدر.

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 278.
(2) صافي، الجدول: 12/ 68.

كما أنّه لم يقُل: (وإنّ إبراهيمَ من شيعتِه) بتقديمِ الاسمِ وتأخيرِ الخبرِ على الأصل؛ صيانةً للفاصلةِ ألّا تَنخَرِمَ، ولإفادةِ الاختصاصِ والعنايةِ بشيعةِ نوحٍ، فأكرِمْ بهم مِن أشياعٍ لأكرَمِ إمامٍ، فهو جِذْر الأنبياءِ والمُرسَلين، وأبو البَشَر الثاني، فقولُه: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ - مقدَّمًا - ثناءٌ على إبراهيمَ بنوحٍ، وقولُه: ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ - تأكيدًا - ثناءٌ على نوحٍ بإبراهيمَ عليهما السلام.

بلاغةُ الكنايةِ:

ما ثَبتَ للتابِعِ فثُبوتُهُ للمَتبوعِ أولَى

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ كنايةٌ باللّازِمِ عن وصفِ نوحٍ بسلامةِ القلبِ أيضًا، فلمّا أثبتَ سبحانَه لإبراهيمَ عليه السلام أنّه سليمُ القلب، وأنّه من شيعةِ نوحٍ فأثبتَ لنوحٍ ما ثَبتَ لإبراهيمَ عليه السلام، إلّا أنّ ذلك أثبتُ لإبراهيمَ بالطّريقِ الصّريح، ويَثْبُتُ لِنوحٍ باللُّزوم، فيكونُ أضعفَ فيه من إبراهيمَ عليه السلام[1].

توجيهُ تعلُّقِ ﴿إِذْ﴾ بالعاملِ:

سلامةُ قلبِ إبراهيمَ أشهَرُ مِن عَلَمٍ على رأسِهِ نار

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ظرفٌ للزّمن الماضي، وهو إمّا أن يكون متعلِّقًا بمحذوف دلّ عليه لفظُ ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ أي: شايَعَ نوحًا حينَ جاء ربّه بقلبٍ سليم[2]، وقد أثار هذا التّعلُّقُ إشكاليّةً وهي تقييدُ المُشايَعةِ بمَجيئِه بقلبٍ سليم، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام هو من شيعته في كلِّ وقتٍ، فلَم يكُنْ عليه السلام في وقتٍ من الأوقاتِ إلّا سليمَ القلب، فثبَتَ بذلك أنّ كلّ أوقاته جاريةٌ في مُشايَعة نوحٍ عليه السلام، لم تَنفَكّ عن اتّصافِه بسلامةِ القلب. وإمّا أن يكونَ الكلامُ متعلِّقًا بمحذوفٍ على تقدير: (واذكُرْ إذ) وهذا التّقديرُ هو الأشهَرُ والأسلَمُ من المُعارَضةِ النّحويّة والدّلاليّة[3]، مع ما فيه من الأمرِ باستحضارِ أمرٍ معلومٍ لا يَخفَى على ذي لُبٍّ ونظَر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 138.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 48.
(3) الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 9/ 318، والقونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 278، وصافي، الجدول: 12/ 68، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 192.

نكتةُ التّعليلِ مِن استعمالِ الظّرف:

القلبُ السّليمُ هو عِلّةُ الاصطفاءِ الإلهيّ للعبدِ

أخَذَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ معنى التّعليل لكونِهِ مِن شيعتِهِ؛ فإنّ معنى التّعليل كثيرُ العُروضِ لإذ، كقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: 39][1]، كأنّه قيل: (اصطفَينا لِنوحٍ إبراهيمَ مُشايعًا له؛ لأنّه ذو القلب السّليم)، ومعنى التّعليل منتزَعٌ من السّياق، غيرُ مُستقِلّ بالظّرف وحدَه.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمَجيءِ:

جاء التّعبير بالمَجيءِ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ولم يقُلْ: (أتى) لتحقيقِ معنى القَصدِ في الحُضورِ؛ أيْ: (حضَر إلى ربّه بقلبٍ سليمٍ وهو قاصدٌ عازِم).

بلاغةُ تنوّعِ الاستعارةِ في لفظِ المَجيءِ:

تجرُّدُ إقبالِ الخليلِ على اللهِ تعالَى بقلبٍ خالصٍ مِن كلِّ شيءٍ

في استعمالِ لفظِ المَجيء في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ استعارةٌ، وهي إمّا من بابِ التّمثيليّةِ؛ إذ شبَّه حالَه في دوامِه على استحضارِ الإخلاصِ للّهِ تعالى، بحالِ الآتي إلى شخصٍ حينَ يَحضُرُ إليه فلا يكونُ شيءٌ من بدَنِه عندَ شخصٍ غيرِه. وإمّا من بابِ تشبيهِ إخلاصِه قلبَه للّهِ بمَجيئِه ربَّه بقلبِه، بجامعِ الحُلولِ والحضورِ في كلٍّ، فالإخلاصُ حالٌّ في القلبِ حاضرٌ فيه؛ فجعلَهَ كأنَّه مأتيٌّ به حالًّا عندَ اللّهِ حاضرًا كشيءٍ محسوسٍ يُجتلَبُ ويُؤتَى به إلى مُستَحِقِّه، واللّهُ سبحانه صاحبُ الإخلاصِ والمستحِقّ له وحدَه، وذلكَ على سَبيلِ الاستعارةِ التَّبعيّةِ التصريحيّةِ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيّةِ:

مَن ذاقَ إحسانَ ربِّه إليهِ زادَ قُربُهُ ومَيلُه إليه

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ التّعبيرَ بالرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ للدّلالةِ على أنّه مجيءٌ بسببِ الإحسانِ، وطمعًا في الإحسانِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 137.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 97.

فاللّهُ حقيقٌ بتسليم القلبِ له بسببِ إحسانِه إلى خَلقِه بأصنافِ النِّعَم الَّتي لا تتناهَى ولا تَنقَطِع، والعبدُ يُسلّم قلبَه ويُخلِص العبوديّة استنزالًا لصنوفِ عطاياه، كأنّه يُرغِّب كلَّ سامعٍ في سلامةِ القلبِ بمُقتضَى إحسانِ اللّهِ السّابقِ، وإحسانِه اللّاحقِ، فمَن يُسلّم قلبَه يَزدَدْ خيرًا وإكرامًا.

نوعُ الباءِ ودَلالتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ للمُصاحَبة والمُلابَسة؛ أيْ: معَه قلبٌ سليمٌ؛ أيْ: مُلتبِّسًا ومُتَّصِفًا بسلامةِ القَلب[1].

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ القَلب:

القلبُ هو الاسمُ العَلَمُ وهو الأنسَبُ بصِفةِ السّلامةِ

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة القلبِ دونَ الفُؤادِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾، وذلك لأنّ المقصودَ أنّه أتَى الخليلُ ﷺ ربَّه بالقلب المُتَّصِفِ بالسَّلامة باعتبارِ اسمِ العَلَم، دونَ الفؤاد؛ لأنّ مواضِعَ استعمالِ الفؤاد تكونُ في سياقِ ذِكرِ الانفعال والتَّفاعُل؛ لدلالةِ الفؤاد على التَّفَؤُّدِ والتَّوقُّد، وهذا السّياق قد ذُكِر فيه القَلب وهو خالٍ من كلِّ اعتبارٍ، مُتمَحِّضٌ لاعتبارِ السّلامةِ، المُستجمِعُ لِكُلِّ أسبابِ الخيرِ والنّجاةِ والفوز.

فائدةُ الابتداءِ بالمَوصوفِ قَبلَ الصِّفةِ:

مُراعاةُ الأصلِ أمتَنُ في بِناءِ المعاني وتَجليَةِ الحقائقِ

الابتِداءُ بالقلب في قوله: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾؛ لأحقيَّتِه بالتَّقديم، فالبَدءُ بالموصوفِ قبلَ صفتِه هو الأصلُ، ولا يَجري تقديمُ الوصفِ هنا إلّا بالعُدول إلى أسلوبِ الإضافة، كأنْ يُقال: (جاء ربَّه بسلامةِ القلبِ)، لكنّه ترَكَ ذلكَ الأُسلوبَ، وابتدَأ بذِكرِ القلْب ثُم وصفَه بـ ﴿سَلِيمٖ﴾ لِما في ذِكْر القلْب من إحضارِ حقيقةِ ذلك القلبِ النّزيه، ولذلك أوثِر تنكير (قَلْب) دونَ تعريفِه، وهذا التَّنكيرُ أحَدُ دواعي جَرَيانِ التّركيبِ على صورتِه في النّظْم أيضًا[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 137.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 137.

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ (قلبٍ):

نُكِّر لفظُ القلبِ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ لتكثيرِ أحوالِ القلبِ في وُجوه السّلامة، فالقلبُ لَمّا كان مُتنوِّعًا بحسَبِ واردات الأحوالِ عليه نكّره، وسلامةُ قلبِ إبراهيمَ ﷺ أعظمُ من أن يُدرِكَ حقيقتَها عامّةُ المُخاطَبين، فلو قال: (بالقلب السَّليم)؛ لكان معيارًا للقلب المَقبول، والمَقصودُ مَدحُه بما يُميِّزُه عن غيرِه مِمّا لا يُحاطُ بكُنهِه على التّحقيق.

لسلامةِ قلبِ إبراهيمَ مِعيارٌ خاصٌّ لا يُحصِّلُهُ كلُّ مُريدٍ

دَلالةُ صيغةِ فَعيل في: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

صفةُ ﴿سَلِيمٍ﴾ الموصوفُ بها القلبُ في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، إمّا صفةٌ مُبالَغةٍ؛ أيْ: (كثيرُ السّلامة، بمعنى بالغِ السّلامة)، وإمّا صفةٌ مُشبّهةٌ تدُلّ على ثُبوتِ الوصفِ؛ أيْ: (دائمُ السّلامة). وبِناءُ المُبالَغةِ يُصوِّرُ كثرةَ المُعالَجةِ للصّفةِ وتَكرارَها حتّى تصيرَ كالعادةِ المُطّردةِ، والصّفةُ المشبّهةُ تصوّر كيف أنّ الوصف جرَى من الموصوفِ مَجرَى الجِبلّةِ والطّبْع من كثرةِ ما يعتادُه ويُلازِمُه[1].

سلامةُ قلبِ الخليلِ جَرَتْ مَجرَى الطّبعِ الثّابتِ والخُلُقِ الرّاسِخِ

نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّقِ السّلامةِ:

جاءت صفةُ ﴿سَلِيمٍ﴾ مُطلَقة غيرَ مقيّدة، فلم يقُل: (سليمٌ من الآفات، أو الأحقاد، أو الشبُهات) ونحوَ ذلك؛ وذلك للتّعميم في أحوالِ الآفاتِ والعلائق؛ أيْ: سالمٌ من جميع الآفات، وأوّلاها الشِّرك، وسالمٌ من جميع العلائق، فلا يَنشَغِلُ عن اللّه بمتعلَّقٍ من أسبابِ الدُّنيا، بل يرى اللّهَ سبحانَه قَبلَ كلِّ فِعلٍ وقبلَ كلّ فاعل، فلا يتوزّع هَمُّه في غير سبيل اللّهِ وقصدِه[2]، وهذا الإطلاقُ ألطَفُ في بابِ المدحِ من التّقييد، فإنّه محمولٌ على عموم المتعلّقاتِ المحذوفةِ مما يُضادُّ وصفَ السّلامة، فكلُّ ما يتخيّله الذّهنُ من أوصافِ المَرَضِ القلبيّ فهو عنه خليّ.

كلُّ ما يُتخيَّل من أوصافِ المَرَضِ القلبيّ فالخليلُ عنه خَليّ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 84، 102.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 279.

وجْهُ إجراءِ ﴿سَلِيمٍ﴾ على المَجازِ:

إجـــراءُ لـفـظِ (سـلـيـم) على حـقـيـقـتِـهِ هـو الأولَـــى وهـو يَستلزِمُ المَعنَى المَجازيّ

مِن حيثُ صَنعةُ البلاغةِ يَصِحُّ إجراءُ وصفِ ﴿سَلِيمٍ﴾ على المجازِ المُرسَلِ لعَلاقةِ اللُّزومِ، إذا حمَلْناه على مَعنى حَزينٍ مِن إشراكِ قومِه وضلالِهم، وذلك بتسميةِ الشيءِ باسمِ لازمِه، إذِ الحزنُ بسببِ شركِهم هو عيْن سلامةِ القلبِ مِن الآفاتِ، كما يَصِحُّ إجراؤُه على الاستعارةِ، بتسميةِ المَهموم الحزينِ بصفةِ ﴿سَلِيمٍ﴾ بغَرَضِ التّفاؤلِ؛ كتسميةِ اللَّديغِ سليمًا تفاؤلًا بسلامتِه، فاستعارَ ﴿سَلِيمٍ﴾ بمعنى (حزين) في الآيةِ، مِنْ (سليم بمعنى اللَّديغ)، ووجْهُ الشّبَه: التَّأثُّر والانفعالُ للإصابةِ الحاصلةِ في كلٍّ. ولا يَخفَى أنّ أصلَ تسميةِ السّليم باللَّديغ قد يقَعُ على سبيلِ المَجازِ المُرسَلِ لعَلاقةِ المآلِ المَرجوّ[1]، وهذان الإجراءان لهذا اللَّفظِ الكريم إغرابٌ عن الظّاهر، وابتعادٌ عن المقصود، وإنّما أغرَى بهما الحَملُ الشّائعُ في الاستعمال العربيّ للفظِ (سليم) على معنى (لديغ)، وهو خروجٌ عن سلامة الاستعمالِ، فالأصلُ إجراءُ الاستعاراتِ والمَجازات بدون تكلُّفٍ أو إغراب، والمعنى المُرادُ مِن الإجراءِ المَجازيّ متحقِّقٌ، إذ سليمُ القلبِ سَيَحزَنُ على قَومِه لِما أصابَهم من الضّلال المُبين.

توجيهُ تخصيصِ القلبِ بالذِّكرِ:

القـلـبُ مَـركـزُ تـغـذيـةِ الـرّوحِ ومَجمَعُ انعقادِ النّيّات

اختصَّ النّظمُ بوصفِ القلبِ بالسّلامةِ دون بقيّة الأعضاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ لتوقُّف مَناطِ الإيمان والتَّكليف عليه قَبولًا وانقيادًا وإذعانًا، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ للقلْب في ذلك، فالقلب سيّد الأعضاء، ومَصدرُ إمدادِها بالعمَلِ والسّلوك، فالتّعويلُ عليه، والعزيمةُ منه، وانعقادُ النّيّات - التي يَصِحّ بها كلُّ اعتقادٍ وتكليفٍ - فيه. والمُرادُ بالقلبِ وِعاءُ الإدراكِ والأخلاق، وليس العُضوَ المادّيّ المعروف[2].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 137.

مَوقعُ جُملةِ الظَّرفِ مِن جُملةِ الظّرفِ السّابقِ:

جُملةُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ بدلُ اشتمالٍ من قولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فإنّ قولَه - إنكارًا على قومِه ما يَعبُدون - ناشِئٌ عن امتلاءِ قلبِه بالتّوحيد والغضبِ للّهِ على المشركين، فكان قولُه ذلك مَشمولًا في قلبِه السّليم صادرًا عنه[1].

إنـكـارُ المُـنـكَـرِ مِـن مُقتضَيات سلامةِ القلوبِ وطهارتِها

وتَحتمِلُ جُملةُ الظَّرف أن تكونَ ظرفًا لسليم؛ أيْ: (سَلِمَ عليه في وقتِ قولِه كَيْتَ وكَيْتَ)، أو ظرفًا لفعل ﴿جَآءَ﴾[2]، كأنّه قيلَ: (جاء بسلامةِ قلبِه حينَ قالَ لقومِه كذا، أو قلبُه سليمٌ في الوقتِ الَّذي أنكَرَ فيه على قومِه شِركَهم)، وعلى هذا التعلُّقِ للظّرفِ بـ ﴿جَآءَ﴾ أو ﴿سَلِيمٍ﴾ يصِحُّ أن تكون ﴿إِذْ﴾ في: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ تعليلًا للمَجيء أو السّلامة؛ أيْ: (جاء بذلك؛ لأنّه قال لقومه)، أو (اتّصف بقلبٍ سليم؛ لأنّه قال لقومه)، فهو من تعليلِ القضيّة بالدّليل عليها، والقولُ بالبدَلِ أولَى بالقَبول، وأوضَحُ في السّياق، وتَحتَمِلُ الجُملةُ أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا نشَأ عن سؤالٍ مُفْتَرَضٍ بعدَ قولِه: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، كأنّه سُئِلَ: (وما أمارة مجيئه ربَّه؟! وما أمارةُ سلامةِ قلبِه، ودليلُه؟)، فأُجيبَ بحالِه في الدّعوة[3].

بلاغةُ الكناية في جُملةِ الظّرف:

الاسـتـغـراقُ في حـالِ الـصّـلاحِ يستأهِلُ العبدَ للإصلاحِ

في توالي الظّرف بعدَ الظَّرف تنبيهٌ على أنّ حالَ القلب يَستوجِبُ آثارَه مِن الأقوالِ والأعمال، فأقوالُ اللِّسانِ وأعمالُ الجوارحِ تَستتبِع أحوالَ القُلوبِ في الاعتقادِ والتّصديقِ والقَصدِ، فكان قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ كالدّليلِ والأمارةِ على سَلامةِ قلبِه، ولذلك تأخّرَ بعدَه، وهو كنايةٌ عن صَلاحِه في نفسِه بالقلبِ السَّليم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 138.
(2) السّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 319.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 148.

وإصلاحِه لغيرِه، فقلبُه السّليمُ يَلزَمُ عَنهُ صلاحُه في نفْسِه، ودعوتُهُ لأبيهِ وقومِه يَلزَمُ عنها إصلاحُهُ لغيرِه، فهوَ صالحٌ ومُصلِحٌ[1].

نوعُ الواوِ ودَلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ للعطفِ، وهي مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، فأبوهُ من قومِه، ولفظُ القومِ عامٌّ يشتَمِلُ أباه.

نُكتةُ تقديمِ ذِكرِ الأبِ على القَومِ:

كـلّـمـا ازدادَ الـقُـربُ ازدادتْ عِـنـايـةُ الـدّاعـي بمَدعوِّه

جاء تقديمُ ذِكرِ الأبِ على القومِ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ تقديمًا للأخصّ في الصِّلة على ما هو دونَه في ذلك، فبدأ بأبيه؛ لأنّه أعظمُ النّاسِ عندَه؛ وأجلُّهم في عينِه؛ وأعزُّهم لدَيه[2]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ المرءَ يبدأُ بأهلِه حتّى لا يُعيَّر بهم، ولا يُنتقَدَ بتجاوُزِه لهم إلى غيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: 214]، وليكونَ له من عُصبَتِه الخاصّةِ عَونٌ له على إقناعِ قومِه، وكفِّ شرِّهم عنه، فإنّ الحَقّ يَكونُ أجْلَى وأهيَبَ في نفوسِ المدعوّين إذا كان للدّاعي عِزوةٌ من خاصّتِه يؤمنون به.

دَلالةُ إضافةِ لفظِ القَومِ إلى الضّمير:

أُضيفَ لفظُ القومِ إلى ضميرِه ﷺ، في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ لبيانِ الاختصاصِ، فالإضافةُ بمعنى اللّام، وشأنُ الاختصاصِ بَذْلُ مَزيدِ العنايةِ.

معنى ﴿مَاذَا﴾ وغرضُ الاستفهام:

الإنـكـارُ يُـعـرَفُ بـالـقـرائـنِ والسّياق

﴿مَاذَا﴾ في قولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تركيبٌ من (ما) الاستفهاميّة، و(ذا) المَوصولةِ؛ أيْ: (ما الَّذي تَعبدونه؟)، على أنّ (ما) مبتدأٌ و(ذا) خبرُه، والعائدُ محذوفٌ. ويَصِحّ أنْ تكونَ (ذا) مُلغاةً، و﴿مَاذَا﴾ كلُّها اسمُ استفهامٍ مفعولٌ مُقدَّم لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾، أو يُقال: (ما) اسمُ

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 193.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252.

استِفهامٍ مقدَّم، و(ذا) حرفٌ أو بمَنزِلةِ الحرفِ، ليسَ لها محَلٌّ مِن الإعراب[1]، والاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ جاءَ للإنكارِ، ويوضِّحُه اللَّحاقُ وأنّه محمولٌ على الإنكارِ لا مُجرّدُ الاستفهام.

علّةُ فَصْلِ الجُملةِ عمّا قبلَها:

تعيينُ موضعِ الإنكارِ تفصيلٌ بعدَ إجمالٍ وبيانٌ بعدَ إبهامٍ

جملة ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةَ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بيانٌ لجملة ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ بيّنتْ مَنْشأ الإنكار في قَولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ أيْ: (كَيفَ تُريدونَ آلِهةً إفكًا)، والاستفهامُ في: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةَ﴾ بدلٌ مِنَ الاستفهامِ في: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾، والبَدَليّة مِن دَواعي الفَصْل، فبَيْنَ هذا الاستفهام وما قَبلَهُ كمالُ اتِّصالٍ، كأنّه قيل: (إذْ قالَ لأبيه وقومِه أئفكًا آلهةً دونَ اللّهِ تُريدون) على نيّةِ طَرحِ المُبدَل، ويَصِحّ أن تكونَ جُملةُ ﴿أَئِفۡكًا﴾ من تَتِمّة مَقولِ القَول في: ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾[2]، وعلى جَعْلِ الجُملةِ بَيانًا للسّابقة هو بيانٌ لإبهام السُّؤال، فإنَّ السُّؤال قد يَبدو على ظاهِرِه، لكنْ جاءت هذهِ الجُملةُ بيانًا في كَونِ الأولى إنكارًا لا استِفهامًا مُجرّدًا.

دَلالةُ الاستفهامِ وغرَضُه:

الإنكارُ على القومِ وتوبيخُهم يَلزَمُ الإنكارَ على الأبِ دونَ توبيخِهِ

الاستِفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةَ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ لغرَضِ الإنكارِ، فهو تقريرٌ بِبُطلانِ آلهتِهم، ببيانِ موقِعِها في الإفْك والزّور، وغرَضُ ذلكَ الإنكارُ عليهِم في عبادتِهم ما لا يَستحِقّ، وفيه مع الإنكار توبيخُ قومِهِ والنّعيُ على عقولِهم، والتّسجيلُ عليهم[3]، وهذا الخِطابُ موجَّه لقومِه عمومًا، وأمّا خِطابُ والدِه فلا يكونُ معَه توبيخٌ وما شابَهَه.

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 194.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 138، وصافي، الجدول: 12/ 69، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 149/ 13.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 280.

توجيهُ الأعاريبِ في ﴿أَإِفْكًا﴾ وبلاغةُ التّقديم:

اخـتـلافُ أوجُـهِ الإعـــرابِ يُـثـيرُ المَعـانيَ ويُفتِّشُ عن الخَفايا

وتقديمُ المفعول له ﴿أَإِفْكًا﴾، على المفعول به ﴿ءَالِهَةً﴾؛ لأنّه كان الأهمُّ عندَه أن يُقرِّرَ عندَهم بأنّهم على إفكٍ وباطلٍ في شِركِهم، وهو أولَى مِن مُجرَّدِ إثباتِ كونِهم اتّخذوا آلهة؛ لأنّ ذلك غيرُ منكور[1].

ويصِحّ أن يكون ﴿أَإِفْكًا﴾ في موقعِ الحالِ من فاعلِ: ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أيْ: (تُريدونَ آلهةً من دونِ اللّهِ آفِكين)، وهذا الوجْهُ حسَنٌ في كشْفِ حالِ ذواتِهم، وأنّهم في أنفسِهم - كاذبين - يعلَمون ذلك، والفرقُ بينَ ذلِكَ الوجْهِ والَّذي قبلَه، أنّ الحاليّة تَنفي عنهم أنْ يكونوا في لَبْسٍ أو خفاءٍ من مَعرفة الحقّ، فقد يوقِع الإنسانُ غيرَه في الباطلِ، ولا يدري أنّه هو نفسَه مُبْطِل، فجاء وجهُ الحاليّةِ يُسجِّل عليهم ذلك ويُثْبِتُه. وأمّا وجهُ المَفعولِ لَه، فهو يقرِّر قصدَهم الَّذي يتعدّى لغيرِهم، فلا يلزَم عنه أنّهم كذلك في أنفسِهم. ويجوزُ أن يكونَ حالًا من آلهة، أيْ (آلهةٌ مكذوبةٌ)؛ أيْ: (مكذوبٌ تأليهُها)[2].

دلالةُ استعمالِ الظّرفِ ﴿دُونَ﴾:

مـن دانَ لـغَـيرِ الـلـهِ وقـعَ في الدّون

لفظُ ﴿دُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ظرفٌ متعلِّق بمحذوفٍ نعتٍ للآلهة؛ أيْ: (آلهة أعظمُ أوصافِها أنّها دونَ اللّهِ)، على تقديرِ: (كائنةً دون الله)، أو متعلِّقٌ بفعل الإرادةِ في: ﴿تُرِيدُونَ﴾. و﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ هنا ظرفٌ يدلّ على تقصير الغاية، وتفاوُتِ الحال، وتحقيرِ الرّتبةِ وازدراءِ المَقام، والتّقريبِ بينَ ما أُضيف إليه الظّرفُ، وما تعلّقَ به، بحسَبِ اعتقادِ المُبطِل؛ لأنّهم يعتَقِدون أنّ رتبةَ آلهتهم قريبةٌ دانيةٌ من رُتبة الله سبحانه، كما تدلّ على معنى المُغايَرة والخِلاف، كأنّه قيل: (أتريدون آلهةً غيرَ اللّه خِلافًا له في الذّاتِ والصّفات) فعبّر بـ ﴿دُونَ﴾ ليدلّ على أنّ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 280.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 139.

هذهِ المُغايَرة مُسترذَلة ومَحقورة، في جانبِ مَعبوداتِهم الباطِلةِ الّتي اتَّخذوها، فحقّر آلهتَهم وأقلَّ منها تنفيرًا من حقيقتِها حينَ قال: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾. أي: (إرادتُكم مُتوجِّهة لِلدّونِ الحقير)[1].

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ مُفردةِ الإرادةِ:

جَمَعَ فِعلُ الإرادةِ القصدَ والإدراكَ والعَمدَ في عبادةِ الباطِلِ وتأليهِهِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ لبيانِ توفّر العزم والقصدِ في تَلَبُّسِهم بالشِّرك، فهي إرادةٌ خالصةٌ مَحضةٌ، وهذا كنايةٌ عن نفي العُذر عنهم مِنَ السّهوِ أو الجَهلِ أو سائرِ العَوارِضِ المانِعةِ من المؤاخَذة. وذلك مبنيٌّ على أنّ إرادةَ الشيءِ: ابتغاؤه والعزمُ على حصوله، ولذلك لم يقل: (آلهةً دونَ اللّهِ تَعبُدون)؛ لأنّ التَّعبير بالإرادة أوسَعُ، فهو يُفيدُ العِبادةَ والعَمدَ معًا؛ لأنّ الأصلَ في فعل الإرادة أن يتعدّى إلى المَعاني الَّتي يَستلزِمُها الانفعالُ بالقصدِ، والَّذي هو جوهرُ الإرادة، فهذهِ المعاني هي نواتِجُ الإرادة، أو متعلِّقاتُ الإرادةِ، ولذلك مَعنى ﴿تُرِيدُونَ﴾: تُريدون عبادتَها وتأليهَها، وهذا هو المعنى المرادُ الذي تعدّتْ إليه الإرادة، فكان قوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾ يُفيدُ القصدَ، ويفيد متعلَّقَ ذلك القَصدِ وهو العبادة، وتعليقُ الإرادةِ بمعنى التأليهِ أو العبادةِ مَشهودٌ له بقرينةِ قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أيْ: معبودات تُقْصَدُ وتُرادُ بالتّألّه[2]، وعليه مَدارُ الإنكار، أنّ الإرادة أُنيطت بتأليهِ الإفكِ الَّذي افترَوه، وعبادتِه من دونِ اللّهِ تعالى عن قصدٍ وعَمْدٍ وإدراك.

الفاءُ في جُملة: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

إفادةُ الفاءِ للتعقيبِ الذِّكْريِّ

الفاءُ في جُملة: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفريعيّةٌ لمَدخولِها من الاستفهام على ما قبلَه من الاستفهام الإنكاريّ قبلَه، في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، فالجملةُ هنا مُسبَّبةٌ عن الجملة

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 253، والسّامرّائيّ: 2/ 211.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 139.

قبلَها، والربطُ بالفاء لإفادة التّسبيب[1]؛ أي تفرَّعَ عن الإنكار عليهم بإرادةِ تأليهِ ما هو دونَ اللّهِ تعالى، بالسُّؤالِ عن ظنّهم بالإلهِ المستحِقِّ للعبادةِ الحَقّة.

غرضُ الاستفهامِ وفائدتُه:

تنوُّع المعاني يُعينُ على مَعرفتِه قرائنُ الألفاظِ حَذفًا وذِكرًا

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يجوز أن يَجري على معنى التّعظيم للّه، على معنى: (أيُّ شيءٍ تَظنّون أنّهُ هو حتّى عبدتُّم غيرَه)، كما تقول: (ما ظنُّك بفُلان؟) إذا قصدتَّ تعظيمَه. ويصِحُّ أن يكون على معنى التّهديد لهم، على معنى: (أيُّ شيءٍ تظنّون بربّ العالَمين أن يعاقبَكم به، وقد عبدتُّم غيرَه؟)[2]. وهذا التَّنويع في إجراءِ المَعنى هو نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّق الظَّنّ، مع صيانةِ الفاصِلةِ ألّا تنخَرِم، فاتّجهَ السؤالُ إلى المعاني المُتنوِّعةِ، وتوجيهُ حَذفِ المُتعلَّقاتِ للأفعالِ المَذكورَة.

نُكتةُ التّعبيرِ بالظَّنّ دونَ العِلْم:

ما أهلَكَ الأقوامَ المتقدّمينَ هو سوءُ ظنِّهم وبُطلانُ اعتقادِهم

جاء التّعبيرُ عنِ اعتقادِ قومِ إبراهيمَ بمُفردةِ الظَّنّ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّه اعتقادٌ غيرُ مُطابقٍ للواقعِ، ولَم يُسمِّه عِلمًا؛ لأنّ العِلْم لا يُطلَق إلّا على الاعتقادِ المُطابقِ للواقع؛ ولذلك عرّفوه بأنّه: (صفةٌ توجِبُ تمييزًا لا يَحتَمِلُ النقيضَ)، ولا ينتفي احتمالُ النّقيض إلّا متى كان موافِقًا للواقع.

وقد كثُرَ إطلاقُ الظَّنّ على التّصديق المُخطِئِ والجَهلِ المُركّبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: 116]، وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النّجم: 28][3]. ولم يقُل: (فما اعتقادُكم)؛ لأنّ الاعتقادَ جِنس، والمرادُ تبيينُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 139.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 140.

نوعِه هل هو الظنّ أو العِلم؛ فأفاد استعمالُ هذهِ المفردةِ أنَّ ما يقَعُ في قلوبِهِم وعُقولِهم في ربِّ العالَمينَ ما هو إلّا ظنونٌ لم تبلُغْ مبلَغَ الاعتقاداتِ الصّحيحة، سواءٌ أكانتِ الظُّنونُ فيما يتعلّقُ بصفاتِ اللّه تعالى، أو ما يتعلَّق بمآلِهم عندَه إذا انقلَبوا إليه، أو ما يتعلَّقُ بالعذابِ والحِساب، فإنَّ تلك الظُّنونَ هي الَّتي أوردَتْهُمُ المَهالِكَ المستوجبةُ للإنكارِ.

نوعُ الباءِ وفائدتُها:

مَن تَفكّرَ باللهِ تعالى وآلائِه وصفاتِه انقادَ إليهِ وتَوكّلَ عليهِ

عُدّي الظَّنُّ المُتضمِّنُ معنى الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالباءِ، فكأنَّه قيلَ: فما تظنّونَ بِرَبِّ العالَمينَ؛ للإشعارِ بأنّ ظنَّهم غيرُ صادِقٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فُصّلت: 23]. وذلك أنّه إذا عُدّي بالباءِ، فالأكثرُ حذفُ مفعولِه، وتكونُ الباءُ للإلصاقِ المَجازيِّ؛ أيْ: ظَنَّ ظنًّا مُلصَقًا باللّه؛ أيْ: مدَّعٍ تعلُّقَه باللّه، وإنّما يناسِبُ ذلك ما ليس لائقًا باللّهِ. والمعنى: (فما ظنُّكم السَّيِّئَ باللّه)[1]، وجيءَ بهذه الباءِ لزيادةِ الإنكارِ عليهم، فإنَّ مَن يتفكّر باللّهِ تعالى فإنّه ينقادُ للخَيرِ، على عكسِ ما كان عليه قَومُ الخَليل.

نُكتةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الإيماءُ إلى دليلِ استحقاقِ الألوهيّة وهو عمومُ الرُّبوبيّة

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إضافةَ لفظِ الرَّبّ للعالَمينَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، دونَ الضَّمير، فلَم يَقُل: (فما ظنُّكم بربّكم)، لكَونِ ذلك أدَقَّ على المقصودِ مِن المَعنى؛ فقد أضافَ الرُّبوبيّةَ إلى العُموم؛ للإشارةِ إلى أنّهم وما يعبُدونَ، جميعًا مَربوبونَ مَقهورونَ للمالِك الخالِقِ سُبحانَه، فكيفَ ينصَرِفونَ عنه إلى أشياءَ يعبدونها تَشترِكُ معَهم ويشترِكون معها في إمدادِ الرُّبوبيّة لهم جميعًا بالإيجادِ والإبقاء، فلولا اللّهُ سبحانه بربوبيّتِه - الَّتي هي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 140.

عُنوانٌ على ذاته - ما وُجِدوا أصلًا، لا هُم ولا معبوداتُهم، ولولا إمدادُ ربوبيّة الله ما بَقوا هم ولا آلهتُهم المُتوهَّمةُ، فكانت الإضافةُ للعالَمينَ أشمَلَ وأوسعَ وأتمَّ في تسجيلِ التّعريضِ بهِم وبمَعبوداتِهم؛ ليُسجِّلَ عليهِم بضلالِ المَسْلَك، وسَفاهةِ العقولِ في مُخالفتِهم بدَهيّات المنطِق، وافتقارِهم لسلطانِ الحُجّة والبرهانِ، ففي هذه الإضافةِ جمعُ الدّليلِ عليهِم، بأنَّهم مَخلوقون لربِّ العالَمين، فهُم خَلْقٌ من خَلقه، وأثَرٌ من آثارِ قُدرته واقتداره.

ذِكرُ الرَّبوبيّة كنايةٌ عن التَّرغيبِ في مغفرةِ الذُّنوبِ والعَفوِ عنِ العِبادِ

إضافةُ الرُّبوبيّةِ للعالَمينَ في قولِه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه نوعُ ترغيبٍ لهم بالاستفاقةِ من الغفلةِ، وعدمِ التَّمادي في ستائرِ الجَهْلِ والضّلالِ، فإضافةُ الرَّبّ للعالَمين كنايةٌ عن كَون الرُّبوبيّة جامعةً لكلّ شيءٍ، وإذا كان ذلكَ كذلك، (فما ظنّكم بربّ العالمين وقد حصَرتُم أنفسَكُم في حَيّزٍ أضيقَ من سَمِّ الخياط، وهو التّعلُّق بالأصنام الَّتي لا تنفَع ولا تضُرّ نفسَها فضلًا عن غيرِها، فظُنّوا باللهِ خيرًا وتَحوّلوا من ضيْقِ عجْزِ تلك الآلهةِ، إلى سَعةِ قُدرةِ وربوبيّة اللهِ سبحانَه الَّتي عمّتْ كلَّ العالَمين، فلا يأسِرنَّكُم ذلكَ الضّيْق؛ لتَيأسوا من رحمةِ اللهِ وواسعِ فضلِه، ففي جميعِ الأحوالِ فِرّوا إليه، ولا تَفِرّوا عنه، فلستُم بِدْعًا من العالَمين، ولستُم بِمُستبْعَدينَ من ساحةِ رُبوبيّته؛ لأنّها استغرَقتْ كُلَّ العالَمين، وما أنتم إلّا نَفَرٌ منهم). فالإضافةُ إلى العالَمين تؤسِّس لترغيبٍ عظيمٍ في الفِرارِ إلى اللهِ وعدَمِ اليأسِ منه، وهذا موافِقٌ لعاداتِ القرآن مع إفساحِ الأمَلِ للمُذنبينَ.

براعةُ ذِكرِ الرُّبوبيَّةِ بعدَ الألوهيّةِ:

الأسلوبُ الإقناعيُّ يَجمَعُ الدّعوى بدليلِها والدّعوةَ بِبُرهانِها

ذَكَرَ النّظمُ الكريمُ في الآيةِ السّابقةِ الاسمَ الجليلَ وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ فقال سبحانَه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، وذَكَر هُنا عُنوانَ الرُّبوبيّة ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فجَمعَ السّياقُ بينَ الوَصفَين، ونُكتةُ ذلكَ أنَّه في الآيةِ الأولى ذَكَر الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهِ﴾ لذِكر

﴿ءَالِهَةً﴾، فالألوهيّةُ استحقَّها اللّهُ ﷻ، الَّذي تبارك اسمُه الجليلُ ذو النَّعتِ الجميلِ، وفي الآية اللّاحقةِ ذَكرَ عُنوانَ الرُّبوبيّةِ لأنّه جاءَ كالدّليل على الألوهيَّةِ، فكأنّه قيل: (اعبُدوا اللّهَ تَعالَى وحدَه؛ لأنّه المُستحِقُّ لذلكَ فهو ربُّ العالَمينَ)، وهو أسلوبٌ إقناعيٌّ في إتّباعِ الدّعوَى بدليلِها.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرابطةُ:

احتمالُ التّفريعِ والفصيحةِ لترتُّبِ السّابقِ على اللّاحِقِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ عاطفةٌ مَدخولَها على ما قبلَه، إلحاقًا به على معنى التّفريع والترتُّب؛ أيْ: (ترتّبَ على إنكارِه لهُم بقَولِه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنْ نظرَ نظرةً في النّجوم)، ويصِحّ أن تكونَ الفصيحةَ الَّتي تَعطِفُ مدخولَها على محذوفٍ مقدّر؛ أيْ: (دَعَوْه لأعيادِهم، الَّتي فيها طقوسُ مُعتقداتِهم في النّجوم - وكانوا قومًا لهُم باعٌ وديانةٌ في عِلمِ النّجوم - فنظَر في النّجوم إيهامًا لهم بتعليلِ امتناعِه عن حُضورِ عيدِهم؛ ليَظهَر امتناعُهُ حُكمًا مُترتِّبًا على استهدائِه بالنّجوم)، وهو تعلُّلٌ بما يوافِقُ معتقَدَ الخَصمِ اتّقاءَ شرِّه[1].

نُكتةُ تقييدِ المَفعولِ المُطلَقِ بصيغةِ المرّة:

صاحِبُ الحَقِّ مُلهَمٌ مُعلَّمٌ، سَريعُ النّظَرِ، صيّادٌ للفِكَر

يدُلّ المفعولُ المطلَق في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً﴾ على تأكيدِ مصدرِ العامل، وهو الحدَث الَّذي أخرجَه العاملُ أو الفعلُ لَحَيّزِ الوُجود، وفائدةُ التَّنصيصِ على المصدرِ ﴿نَظْرَةً﴾ بعدَ ذِكرِ العامِلِ ﴿فَنَظَرَ﴾ المُبالَغةُ في تعيينِ المَطلوب وتحقيقِ النّظَر، كأنّ الفاعلَ (النّاظِر) يُريدُ أن يستغرِقَ في الحدَثِ نفسِه وهو النّظرة، بما يدُلّ على إتقانِه وإحسانِه في التّفكيرِ والتّدبير، وجاءَ المفعولُ المُطلَقُ على (مصدر المَرّة)؛ ليدُلّ على سُرعةِ انقضاءِ النّظَر عندَ الخليلِ ﷺ، فهو لم

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 128، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 98، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 142.

يتجَلجَلُ أو يستغرِقُ طويلًا في النّظَر؛ لاقتضاءِ المَقام أن يُعيرَهُم جوابًا مِن غَيرِ تمهُّلٍ أو تردّد، وفيه إيماءٌ إلى سرعةِ البديهة النبويّة الَّتي كان عليها ﷺ، مع تمام انكشافِ الحَقّ له، فصاحِبُ الحقِّ تكفيهِ نَظرةٌ وفِكْرة؛ لأنّه مُلْهَمٌ مُعلَّم، فكان في ذلك إيماءٌ إلى أنّ اللّهَ ألهَمَهُ المَكيدةَ وأرشدَهُ إلى الحُجةِ، بسبَبِ أنّ اللّهَ آتاهُ رُشدَه، كما قال: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: 51]، ومَنْ يكُ راشِدًا فسُرعانَ ما يلتقِطُ الحِكمةَ مِن مَرّة[1].

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ دونَ (إلى):

نظَرُ الخَليلِ كانَ في النُّجومِ تفكُّرًا لا إليها غايةً

آثَرَ النّظمُ الكريم استِعمالَ حرفِ الظّرفيّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ على معنى نظَرَ في شأنِ النّجوم، بمعنى تفكَّرَ في شأنِها وإعجازِ خَلْقِها؛ فيكونُ السّببُ في تعدية النّظَرِ بحَرف ﴿فِى﴾؛ لِجَرَيانِ النّظَر على معنى التّفكّر، والتفكُّرُ يتعدّى بحرف (في)، والمقصودُ بالتّفكُّر هو التَّفكُّرُ التَّعبّديُّ؛ أيْ (في شأنِها إعجازًا وخَلْقًا)، وإنْ قُصِدَ بهِ الاحتيالُ عليهم؛ لأنّ الاحتيالَ على الكافرينَ لمَصلَحةِ التَّوحيدِ لا يتعارَضُ مع التَّفكُّرِ التَّعبّديِّ، بل هو جزءٌ من التعبُّد، ولا يَخفَى ما في التّوجيه مِن إجراء أفعالِ الأنبياءِ على أحسَنِ الوُجوهِ والمَقاصِدِ، وإقصائِها عن معاني العبثِ واللّغو.

ولم يَستعمِلْ حرفَ (إلى)، فلَم يقُل: (فنظر نظرةً إلى النّجوم)؛ ليدلَّ بذلك على أنّ النّجوم لم تكن غايةً له ﷺ، فهو لم يكن يعتقِدُ فيها حتّى يجعلَها غايةَ نظرِه، بل كان نظرُه حيلةً عليهم وإيهامًا لهم. والتَّعدية بحرف ﴿فِى﴾ تدلّ على أنّه لم يكن ينظُر في ذاتِ النّجوم، بل في معنًى يتعلّقُ بها، وهو أحوالُ النّجومِ أو عِلمُ النّجوم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 142.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

المُشاهَدةُ البصَريّةُ يَتبَعُها إبصارٌ للحَقِّ قلبيٌّ وإقصاءٌ للباطِلِ عقليّ

لفظُ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ إمّا على حذفِ مُضاف؛ أيْ: (نظَرَ في مَواقِعِ النّجومِ - مَطالِعِها ومغارِبِها واتّصالاتِها وغيرِ ذلك)[1]؛ لأنّ النّظر في النّجوم نفْسِها مُتعذّرٌ على الحقيقةِ، فالتعديةُ بحرفِ الوعاءِ تدُلّ على مُضافٍ محذوف[2]، فهو من المَجازِ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه، ونُكتةُ الحذفِ الإيجازُ في العبارةِ، وتنبيهُ المُخاطَب على أنّ نظرَهُ كان عامًّا فيما يراه بالمُشاهَدةِ البصَريَّةِ، وما يَتبَعُه مِن الإبصارِ القَلبيِّ الدّالِّ على العُبوديّةِ الحَقّة.

ويصِحُّ أن يكونَ قد أطلَقَ النّجومَ وأرادَ السّماء[3]، على طريقةِ المَجازِ المُرسَل، لعَلاقةِ الحالّيّة، فأطلقَ الحالَّ وأرادَ المَحَلَّ؛ لأنّ السَّماء هي محَلّ أجرامِ النّجومِ وسائرِ النّيِّرات.

بلاغةُ الكنايةِ:

الأنظارُ الصّاعِدةُ مُحتَجِبَةٌ عن فوضَى الأفكارِ

يَصِحُّ إجراءُ قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ على أنَّه كنايةٌ عنِ التفكُّرِ للِاحتيالِ والتَّدبيرِ؛ فإنّ المُتفكِّرَ في تقديرِ جوابٍ أو أمرٍ، يُصعِّدُ نظرَهُ إلى جِهةِ النّجوم؛ ليتحيّزَ عن الشّواغِلِ والمَرئيّات، فيصفوَ عنِ العَلائقِ الحاجِبةِ عن كمالِ الفِكْرِ والنّظر[4].

توجيهُ تخصيصِ النُّجومِ بالذِّكرِ:

ابتدارُ الخَصمِ مِن جِهةِ مُعطَياتِهِ أقصَرُ إلى قلبِهِ بالإقناعِ والإفحامِ

خَصَّ النّظمُ النُّجومَ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ وهو جارٍ على حذفِ مُضاف[5]، والمُرادُ السّماء ومَطالِعُها كما سبَقَ بيانُهُ، وذلك لكَونِ النُّجومِ مِن شُؤونِهِمُ الاعتقاديّة، فيُلمِحُ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 282.
(2) الخطيب، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 23/ 150.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 141.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 141.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 13.

بذِكْرِها إلى إقناعِه لَهُم إقناعًا كإقناعِ الحُجَجِ الاعتقاديّة؛ أيْ: ليس إقناعًا عاديًّا، بل إقناعٌ تامٌّ وكاملٌ، كما لو استدَلّ لهم بحُجّةٍ دينيّةٍ مُسلَّمةٍ عندَهم، فيكونُ ذِكرُ النّجوم دونَ السّماءِ إيماءً إلى التّمهيد لكمالِ إقناعِه لهُم، وكَمالِ تصديقِهم له.

توجيهُ إقامةِ المصدَرِ مَقامَ المفعولِ والفاعلِ في اللّفظِ الواحد:

أنـظـارُ الأنبـيـاءِ مَـعـصـومـةٌ عن مُجانَبةِ الصّواب

يَحتَمِلُ لفظُ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾، أن يكونَ مَصدرًا من الفعل (نَجَمَ)، وعليه فلا يُرادُ به الاسمُ، إذ يُقال: (نجَمَ الأمرُ نجْمًا ونُجُمًا إذا ظهَرَ وبزَغَ)، وعلى اعتبارِ المَصدريّة، فهو مِنَ المَصدَرِ الَّذي أُريدَ بِهِ المفعولُ؛ أيْ: نظَرَ في النُّجوم؛ أيْ: (في الشأنِ المَنظورِ)؛ لأنّ النّظَر يقعُ في الشُّؤون والمعاني؛ أيْ: (نظر نظرةً فيما نجَمَ من كلامِهم لَمّا سَألوه أن يخرُجَ معَهم إلى عيدِهم ليُدبِّرَ حُجّةً، فقال ما قال)، فأطلَقَ المصدرَ، وأرادَ المَفعولَ، وهو مَجازٌ مُرسَل لِعَلاقةِ التَّعلّقِ الاشتقاقيِّ، والتَّعبيرُ بالمَصدرِ للمبالَغةِ في تحقيقِ نَظرِه ﷺ، ويكأنّ الشأنَ الَّذي انعَقَدَ نظرُه وفِكْرُه عليهِ بلغَ فيه إلى خُلاصةِ النّظَر ومعدِنِه وجِنسِه، فما نجَمَ له وظهَر بعدَما أجالَ وحكَم وقرّر ودبّر هو عيْنُ النّظرِ الكاملِ المُتجرِّدِ في معناهُ وحقيقتِهِ مِن غيرِ حَيْدةٍ ولا مَثنَويّة، ولا يَخفَى ما في لازمِ ذلك العُدولِ مِن المفعولِ إلى المَصدرِ مِن الإشارة إلى عصمتِه ونزاهتِه ﷺ بشأنِ ما يَنظُرُ فيه ويَظهَرُ له من الأحكام والآراء، كأنّما يأخُذُ رأيَه مِن جنسِ النّظَر الخالص[1].

النّـظـرُ في نجومِ الـقـرآنِ أوسَـعُ دَلالـةً مِـنَ النّـظرِ في نُجومِ الأكوان

ويصِحّ أن يقَعَ العُدولُ مِن المَصدرِ إلى اسمِ الفاعلِ، فأطلَقَ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ (المَصدَرَ)، وأرادَ النّاجِمَ وهو اسمُ الفاعِلِ على معنى أنّه (نظَرَ فيما نجَمَ له من الرّأي)، وهَذا فيهِ زيادةُ مدحٍ عن العُدولِ الأوّل؛ أيْ إنّ إبراهيمَ ﷺ حينَ يَظهَرُ له أمرٌ وقرارٌ أخيرٌ في المسألةِ،

(1) عصام عبد المنصف، الأسلوب العدوليّ بينَ المصدَرِ والمُشتقّات، ص: 1141.

بعد نظرٍ وتفكّر في الشَّأن المنظور، فإنّه يتناوَل ما ظَهَر له وخلَص إليه بالنّظر أيضًا قبل إمضائِه، فهو يبحثُ أولًا في الشّأن المَنظور (المفعول)، ثمّ يَظهَرُ له الرَّأيُ النّاجِمُ عن ذلك (اسمُ الفاعل)، ثمّ يَتناوَلُ ذلك النّاجِمَ بالنّظَرِ تَقييمًا له قبلَ إنجازِه وإمضائِه، فهذا معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ على تَسميةِ اسمِ الفاعِلِ بالمَصدَر[1].

والأولَى حَملُ اللَّفظِ على ظاهِرِه، وهو النّجوم المعهودةُ المَعروفةُ، وما جاءَ من احتمالاتٍ فهي لا تتعارَضُ معَ أصلِ المَسألَةِ في شَأنِ نظَرِ إبراهيمَ ﷺ من جِهةِ المَعنى لا من جِهةِ اللَّفظِ والمَبنَى، وهي احتمالاتٌ تُعطي سَعةَ النّظَر في نُجومِ القُرآنِ، أكثرَ من سَعةِ النّظَرِ في نُجومِ السّماء.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

الأقوالُ السَّليمةُ نِتاجُ النّظَرِ السَّليمِ المَبنيِّ على القَلْبِ السَّليمِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عطفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾؛ أيْ: (تفرَّعَ عن نظرِهِ في شأنِ النّجوم قولُه المذكورُ)، فالعطفُ بالفاءِ للتَّفريعِ وسُرعةِ التّعقيبِ، والمُرادُ بسُرعةِ التَّعقيبِ: نُشوءُ ذلك المَقولِ في نفسِه بمُجرّدِ فراغِه من نظَرِ النّجوم، وأمّا توقيتُ مواجهَتِهم بذلك القَولِ، هل هو حاصلٌ على التَّعقيبِ الفَوريِّ، أو التَّعقيبِ النّسبيِّ؟ احتمالانِ واردانِ. فقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مُسبَّبٌ عن فِعلِه المذكورِ في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾[2]، والظّاهر أنّه قالَه بمُجرّد الانتِهاءِ مِن النّظر.

نُكتةُ تَوكيدِ جُملةِ مَقولِ القَولِ:

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بأداةِ التَّوكيدِ، مُبالَغةً في الاعتذارِ مِنهُم، إظهارًا للاهتمامِ بشأنِهم، فإنّ تأكيدَ الاعتذارِ يدُلّ على الحِرصِ بشَأنِ المُخاطَب، اتّقاءَ شرِّه، أو كسْبًا لمودّته[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 141.
(2) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 150.
(3) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 151.

بديعُ فنّ التَّورية:

مُداراةُ الخُصومِ أسلَمُ في بُلوغِ الغَرَضِ مِن مواجهَتِهِم

في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ رمْزٌ وإيماءٌ وتعريضٌ، على سبيلِ التَّورية، وهذا الفنّ هو أن يُريدَ المُتكلِّمُ إخفاءَ أمرٍ ما في كلامِه، فيَرمُزَ في ضِمنِه رمزًا، إمّا تعميةً للمُخاطَب، وتبرئةً لنفسِه، وتنصُّلًا من التّبِعة؛ لأنّه أراد أن يتخلّف عنهم في اللُّحوق بهم في عيدِهم. وإمّا ليُهتدَى بواسطةِ ذلك إلى طريقِ استخراجِ ما أخفاهُ في كلامِه منَ التّعريضِ بهم، والتّسجيلِ عليهم، كأنّه يَقولُ لَهُم: (إنّي سَقيمٌ مِن شِركِكم، أو سأسْقَم منه).

نوعُ الفاءِ وفائدتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وعطَفَ بالفاءِ لتصوير سُرعة استجابتِهم على إظهارِه السّقَمَ لهُم[1]؛ أي بمجرّد أن قال تَولَّوا.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ التَّولّي مادَّةً وصيغةً:

أصحابُ الأوهامِ لا يُمعِنونَ في مَرامي الكلامِ

استعملَ النّظمُ الكريمُ مُفردةَ التّولّي في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ وهو شدّةُ الإعراضِ والمُفارَقة، بقرينةِ مَجيئِه على صيغةِ: (تَفعّل) الّتي تُفيدُ القوّة في الفعل، فإنّ النّاس تُعرِضُ عن المُعتذِرِ بالمَرَض وتُرخِّصُ له بالإعفاءِ عن أيّ إلزام. والتّعبيرُ بالتَّولّي بصيغةِ (تَفعَّلَ) المُقترنةِ بدُخولِ الفاءِ عليها يدُلّ على سُرعةِ تَصديقِهم لَهُ في اعتذارِه بالمَرَض، وذلك يَقتَضي تمحُّضَهم في الإعراضِ عَنْه من غيرِ تردّدٍ في شأنِه، بدَليل أنّهم لم يتَحرَّوا قَولَه أو لم يتفحّصوه أو يتكلّفوا النّظر في اعتذارِه، بل تجاوَبوا معه سَريعًا بالتولّي، فصيغةُ (تفعَّل) على هذا لقوّة تصديقِهم له وصدقِهم في الإعراضِ عنه؛ لتَمام اقتناعِهم بعُذرِه، وهذا يدلُّ على أنّهم قومٌ أصحابُ أوهامٍ، يُسارِعون في التّصديقِ، ويُسابِقون في التّطبيقِ، فلم يُمعِنوا مَراميَ القولِ، ولا مَقاصِدَ الكلام.

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 152.

بلاغةُ الحالِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وفائدتُها:

قـومُ الخليلِ أدبَـروا في عُمومِ أحوالِهم وخُـصـوصِ مَوقِفِ السَّقَمِ

لفظُ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ من الضَّمير في (تولّوا)، وهي تَحتمِلُ أن تكونَ حالًا لازمةً لصاحبِها، فيكونَ قولُه تعالى: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وصفًا لهم في عُموم أحوالِهم، لا بالنّظر إلى خُصوصِ ذلكَ المَوقِفِ، كأنّه قيل: فانصَرَفوا عنه إلى عيدِهم، والحالُ أنّهم قومٌ مُدبِرون في كلِّ حال. وتَحتَمِل أن تكونَ حالًا مؤكِّدةً لعامِلِها، وهو قولُه: ﴿فَتَوَلَّوْاْ﴾؛ أيْ: هي حالٌ مَخصوصةٌ بموقفِ إعراضِهم عنه بسببِ اعتذارِه منهُم بالمَرَضِ، فالحالُ موجودةٌ ما دامَ العامِلُ موجودًا، ولا يَمنعُ من اجتماعِ دَلالةِ الحالِ في الصاحبِ والعامِلِ، أي في عمومِ حالِهم وهو الإدبار، أو في خُصوصِ تلكَ الحالةِ وهو الإدبارُ عنهُ حينَ أخبرَهُم بسَقَمِه.

وهذهِ الحالُ المؤكِّدة ﴿مُدْبِرِينَ﴾ يُحتَرَزُ بها مِن تَوهُّم أنّ المقصودَ بإدبارِهم، الإدبارُ النّفسانيُّ العقائديُّ، وهو الإدبارُ المُلازِمُ لهُم بالكُفرِ والمُخالَفةِ بالشّرك، بل المرادُ من كَونِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالًا مُؤكِّدة: أنّها حالٌ مُنتقِلةٌ ومُتحوِّلةٌ عنهم بمجرّدِ أن ينتهيَ زمَنُ الفعلِ، فمتَى انتهَى تولّيهم عنه بسبَبِ مرضِه انتهى إدبارُهم، ولذلكَ فالمَعنَى المرادُ على ذلك هو الإدبارُ الحِسّيُّ المُتعلِّقُ بمُغادَرة محَلِّ إبراهيمَ ومُتارَكَتِه إلى موضعِ عيدِهم ومكانِه[1].

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 281، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 142.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»